الاجتياح التركي:

من هم اللاعبون؟ ومن هم المتواطئون؟ ومن هي الضحية؟

في وقت كان الحزبان الكرديان الرئسيان، الاتحاد الوطني والديمقراطي، مجتمعين في انقرة (14 ايار 1997) في جولة جديدة للمفاوضات برعاية ومشاركة الولايات المتحدة وبريطانيا وتركيا من اجل التوصل الى سلام دائم في كردستان العراق، فوجىء المجتمعون بنبأ اجتياح القوات التركية شمال العراق في هجوم واسع، الامر الذي انهى الاجتماع. وسارعت مصادر تركية للاعلان بان اجتياحها شمال العراق جاء نتيجة طلب من الحزب الديمقراطي الكردستاني لملاحقة قوات حزب العمال الكردستاني التركي (ب ك ك).

ولكن مصادر دبلوماسية في انقرة اكدت ان نجم الدين اربكان رئس الوزراء التركي، غاضب من عدم ابلاغه بالاجتياح العسكري لشمال العراق الذي جاء بعد ساعات قليلة من اجتماع له مع وزير التجارة العراقي. في حين بررت مصادر الجيش التركي ذلك خوفا من تسرب خبر الهجوم بما يحبط عنصر المباغتة.

بهذا المشهد الدرامي فتحت الستارة على مسرحية "الاحتلال التركي لكردستان العراق".

المسرح: ان الحالة الكردية هي احدى ثمرات سياسة "الاحتواء" الامريكية القائمة على العزل والحصار للعراق بما يعطل دوره ويخدم المصالح الامريكية نفطيا وخليجيا واسرائيلياً.

ففي غياب قدرة الولايات المتحدة على فرض البديل المناسب لها في العراق اصبح استمرار الوضع القائم خيارا ضروريا، وللتصدي للضغوط الناجمة عن المعاناة الانسانية للشعب العراقي اعتمدت قرار مجلس الامن 986 (النفط مقابل الغذاء) كرفع للعتب وليس للعقوبات.

اما على الصعيد الكردي فان سياسة "الاحتواء" تركت اكراد العراق معلقين بين عدم حسم مشكلة المركز بمايعيدهم الى العراق، وبين عدم السماح لهم باقامة كيانهم الخاص. . وكان من نتيجة الفراغ السياسي والانتظار والحصار ان تفجر الوضع في كردستان، ومرة اخرى لم تكن الولايات المتحدة مستعدة لمسك زمام الامور في كردستان العراق بشكل مباشر وتحمل تبعات ذلك من مال ورجال، الامر الذي جعل من تركيا -الحليف الاستراتيجي لامريكا- اداة فرض الاحتواء والسيطرة على شمال العراق.

تركيا: لجأت تركيا، وبالذات المؤسسة العسكرية صاحبة السطوة، في تعاملها مع اكراد تركيا الذي يزيد عددهم عن عشرة ملايين نسمة الى القمع، وتعاونت سابقا مع بغداد لمنع استخدام الاراضي العراقية من قبل المعارضين

الاكراد، خاصة حزب العمال الكردستاني، وتكرس هذا التفاهم في اتفاق عام 1983 الذي سمح لقوات البلدين التوغل في اراضي الطرفين لمتابعة "المنشقين" الاكراد.

ولكن حرب الخليج الثانية غيرت الامر بجعل كردستان العراق خارج سيطرة المركز-بغداد، واصبحت مركزا لاستقطاب الحركة القومية الكردية وملجأ لحزب العمال الكردستاني.

تعاملت انقرة مع التطور الجديد باعتماد القمع العسكري. وما نشهده اليوم من اجتياح عسكري لشمال العراق هو ثالث عملية واسعة النطاق يقوم بها الجيش التركي بهدف قمع اكراد تركيا.

فقدجرت العملية الاولى في تشرين الثاني 1992، واستمرت الثانية من نهاية اذار حتى مطلع ايار 1995 حيث شارك 35 الف جندي في العملية الجوية-البرية (فولاذ) والتي وصلت الى عمق 002 كيلومتر على طول الحدود البالغة 385 كيلومترا. وشن الجيش التركي، اضافة الى هاتين العمليتين، سلسلة من العمليات المحددة الاهداف والغارات البرية والجوية ضد حزب العمال الكردستاني.

ان السؤال الذي يتبادر للذهن: هل هذه العملية مجرد استمرار للعمليات السابقة، تنتهي قريبا بانسحاب القوات التركية، ام ان هناك شيئاً اكبر؟

العملية التركية تكرار لسوابق وذات اهداف محدودة

يذهب البعض الى ان هدف العملية لايخرج عن ضرب قوات حزب العمال الكردستاني، الذي استمر نشاطه في كردستان العراق رغم الضربات السابقة، وذلك بالتعاون مع قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني من اجل انهاء الوجود العسكري والسياسي لانصار (ب. ك. ك.) في كردستان العراق، بما يترك مسعود البارزاني منفردا في منطقة نفوذه دون منافسة الـ (ب ك ك)، وتذرع انقرة بدعوة البرزاني لها للتدخل تؤكد هذا التعاون التركي - البارزاني.

كما ان لبغداد مصلحة في تعزيز مكانة مسعود البارزاني الاكثر قربا منها من غريمه الطالباني، وعليه ان لم تكن بغداد متواطئة مباشرة فانها على الاقل غير قلقة. ويذهب البعض الى ان التدخل التركي قد يكون ضرورياً من اجل توفير الحماية للاستثمارات المستقبلية لتركيا في العراق (صفقة استثمار الغاز البالغة 5،2 بليون دولار وانابيب النفط والغاز المارة بكردستان).

وقد يكون صحيحا القول ان تعزيز نفوذ مسعود البارزاني هو اضعاف للطالباني وللنفوذ الايراني، ولكن انقرة لوحت للاتحاد الوطني بانه ليس هدفا للعملية، واي دعم قد يحصل عليه مسعود سيعود بالفائدة للاتحاد الوطني كذلك وذلك بتحرير مسعود من الاعتماد على بغداد وهو مطلب الطالباني الدائم. اضافة الى تذرع الاتراك باتفاق انقرة الموقع في 31 تشرين الاول 1996 من قبل الحزبين الكرديين الرئيسيين، والذي ينص: "وافق الطرفان على ان

يعملا لمنع العناصر الارهابية، خصوصا حزب العمال الكردستاني، من ان يكون لها وجود او نشاطات في شمال العراق".

وما دامت القوات التركية لم تتعرض للاتحاد الوطني ومناطق نفوذه فان من الصعب على الاخير تحدي الاتراك -في وقت ايران مشغولة بانتقال السلطة لرئيس جديد- وان بيانات الاتحاد الوطني الاخيرة تؤكد هذا المنحى بامتناعها عن ادانة العملية التركية رغم حذرها.

كما صريح الناطق باسم الخارجية الامريكية نيكولاس بيرنز بعد مضي تسعة ايام على الاجتياح التركي، بان العملية "ستكون قصيرة في الزمن ومحدودة في الاهداف"، وانها "موجهة ضد حزب العمال الكردستاني وليس ضد الشعب الكردي. .".

ان المحك العملي لمثل هذا السيناريو هو في انسحاب القوات التركية من كردستان العراق في فترة لاتتجاوز نهاية شهر حزيران، وذلك قياسا باوسع عملية عسكرية تركية التي استمرت من نهاية اذار الى مطلع ايار 1995.

العملية سابقة جديدة تتجاوز في اهدافها ضرب الـ ب ك ك

ان احتمال وجود ابعاد جديدة للعملية العسكرية التركية بمايتجاوز الهدف المعلن يعود الى جملة عوامل:

- جاء الهجوم العسكري على خلفية الصراع الحاد بين المؤسسة العسكرية التركية وحكومة اربكان ذات الاتجاه الاسلامي. سبق للمؤسسة العسكرية ان حسمت خلافها مع المؤسسات المدنية عبر انقلابات عسكرية (1960،1971، 1980)، ولكن ظروف تركيا الدولية وحرصها على دورها الاوروبي والاطلسي يجعل من ممارسة مظاهر اللعبة الديمقراطية وعدم اللجوء الى الانقلاب العسكري ضرورة، ومن هنا تصبح المغامرة العسكرية الخارجية احدى اهم اوراق الجيش في التحكم في السياسة الداخلية.
- ان نجاح الجيش التركي في اثارة المشاعر القومية التركية كفيل بتطويق تيار الرفاه الاسلامي وفرض وحدة الصف العلماني بوجه اربكان، واستقالة نائبين من جناح تشيلر المشارك في حكومة اربكان تصب باتجاه فرض استقالة الحكومة.
- وقد يطمح الجيش التركي في نجاح عسكري في شمال العراق على غرار نجاحه في قبرص، عندما فرض في عام 1974 احتلال اكثر من 35% من الجزيرة بأسم اقلية من اصل تركي لاتزيد عن 20% من سكان الجزيرة. وان مجرد تعامل تركيا مع شمال العراق ككيان منفصل عن بغداد يدفع للواجهة احتمال اقامة قبرص ثانية في كردستان العراق بأسم الاقلية التركمانية هناك.

- الاتفاقات العسكرية التركية الاسرائيلية سمحت للقوات الجوية لكلا البلدين باجراء تدريبات في المجال الجوي للدولة الاخرى منفردة او مشتركة، كما سمحت للطائرات الاسرائيلية باستخدام القواعد الجوية التركية، وبناء شبكة الكترونية متطورة للتجسس ورصد التحركات والاستعدادات العسكرية على امتداد الحدود التركية مع كل من سورية والعراق وايران، اضافة الى تبادل المعلومات خاصة بوضع صور ومعلومات الاقمار الصناعية الاسرائيلية تحت تصرف الجيش التركي في ضرب حزب العمال الكردستاني.

- تأتي العملية العسكرية على خلفية تعطل مسيرة السلام الفلسطينية الاسرائيلية، ومعاناة نتنياهو مشكلة داخلية بعد فضيحة "بار-عون"، وخارجية مع الادارة الامريكية والاوروبيين، وطالما لمحت مصادر الليكود الى اهمية بناء استراتيجي جديد يقوم على تحالف اسرائيلي-تركي، وقد سبق لنتنياهو القول في اجتماع محدود مع دبلوماسيين خلال زيارته الاخيرة لواشنطن انه "يمكن البدء بدولتين او اكثر لاقامة هيكل امني موحد" في الشرق الاوسط. كما ان الدراسة التي اعدها فريق برئاسة مساعد وزير الدفاع الامريكي السابق ريتشارد بيرل، بعنوان "اسرائيل عام 2000"، جاء فيها: "يمكن لاسرائيل ان تصوغ محيطها مع تركيا من خلال اضعاف سورية واحتوائها بل حتى صدها". وأشارت الدراسة الى ان "اسقاط" صدام حسين "هدف استراتيجي اسرائيلي باعتباره وسيلة لضرب الاطماع السورية الاقليمية".

- تلتقي المؤسسة العسكرية التركية مع اسرائيل في اعتبار سوريا وايران مصدرين للخطر، وان شمال العراق اصبح احدى ساحات النفوذ الايراني والسوري من خلال حزب العمال الكردستاني، الامر الذي يجعل من تعاون تركيا واسرائيل في اعادة ترتيب كردستان العراق ضرورة لايمكن تحقيقها الا بعملية عسكرية شاملة تنهي وجود حزب العمال الكردستاني من جهة، وتفرض الانفراد التركي بابعاد ايران من جهة اخرى.

- ان الانفراد التركي في شمال العراق بالتنسيق مع اسرائيل كفيل بتحويل المنطقة الى ميدان للعمل الفاعل لعزل نظام بغداد وبالتالي اسقاطه لصالح بديل مقبول للتحالف التركي الاسرائيلي الامريكي.

- ان التلكؤ الامريكي طوال السنوات الماضية في حسم الوضع في شمال العراق يعطي اسرائيل وتركيا كل الفرصة لفرض الحقائق الجديدة دون تورط واشنطن المباشر، الامر الذي تحرص عليه الاخيرة. كما ان المشاركة الاسرائيلية هي ضمانة تركيا في الضغط على واشنطن.

- الوجود العسكري التركي في شمال العراق يحسم امكانية تحالف او حتى تعاون مسعود البارزاني مع بغداد، وبذلك تحقق العملية العسكرية التركية هدفا امريكيا بتجريد صدام حسين من مكاسب عملية 31 اب 1996، بالانتشار في جانب من كردستان.

- كما ان بغداد اضعف من ان تتصدى للاحتلال العسكري التركي في الشمال، خاصة وان معظم مصادر تموينها وبالذات النفط يمر عبر تركيا. اضافة الى ان عزلة بغداد العربية و الاقليمية تجعل من اي رد فعل عربي او اقليمي امراً مستبعدا خاصة وان كلا من ايران وسوريا تبادل بغداد الشك والحذر. واي تدخل ايراني مباشر سيجير لصالح استمرار الاحتلال التركي باعتباره ضمانة للتصدي للنفوذ الايراني.
- ان العمليات العسكرية التركية السابقة، حيث عاود حزب العمال الكردستاني نشاطه بمجرد انسحاب القوات التركية، اقنعت اطرافا في المؤسسة العسكرية التركية بضرورة الحسم الدائم عن طريق التواجد المستمر بالتعاون مع البارزاني - على شكل منطقة آمنة و/او قواعد عسكرية- لغاية حسم مستقبل النظام في بغداد.

اللاعب الكردي:

لايزال اكراد العراق يسددون فواتير الانقسامات والصراعات الداخلية، والمشهد الاخير هو فصل جديد من المآساة الكردية.

فالحزب الديمقراطي الكردستاني بقيادة مسعود البارزاني اخذ تدريجيا يتعامل مع القضية الكردية من منطلق الحزب ومصلحة الحزب وقائده اولا، وليس العراق او حتى المصلحة القومية الكردية العليا، الامر الذي يفسر دعوته لبغداد لضرب الاتحاد الوطني الكردستاني في اب 1996، واليوم تدخل القوات التركية كردستان بدعوة من البارزاني، ومن المفارقات ان دعوة البارزاني لبغداد للتدخل في كردستان كانت بحجة حماية السيادة العراقية التي خرقها الوجود العسكري الايراني في كردستان العراق.

ان بيانات الحزب الديمقراطي الكردستاني تضع اللوم على حزب العمال في تدخل الاتراك، كما وضعت اللوم على الاتحاد الوطني الكردستاني سابقا في دعوة قوات الحكومة العراقية، والحزب الديمقراطي في نهجه هذا فقد وسيفقد الكثير من مصداقيته امام الشعب الكردي. وبقدر تصاعد اعتماده على الدعم الخارجي في تعامله مع الاطراف الكردية الاخرى سيجد نفسه ضحية هذا الدعم. وبقدر ماتزداد عزلته شعبيا سيجد نفسه بحاجة اكثر للدعم الخارجي بما يضعه في حلقة مفرغة لاتخدم القضيتين الكردية او العراقية.

اما بالنسبة للاتحاد الوطني الكردستاني، فان العملية العسكرية التركية فرضت عليه وضعا في غاية الحرج، فهو ليس بوارد الاصطدام مع الجيش التركي وبذات الوقت في سكوته خسارة لحليف (حزب العمال الكردستاني) له بعد قومي كردي يتجاوز تركيا الى اوروبا والعالم ، والى مكسب لغريم (الحزب الديمقراطي الكردستاني)، وبالطبع قد يكون في عودة التعاون بين الطالباني والبارزاني قلبا للطاولة التركية، ولكن مثل هذا الاحتمال يبقى من باب التمنيات امام حقيقة الصراع والشكوك بين الحزبين، وماهي مصلحة البارزاني في تقديم طوق النجاة للطالباني!!

وتصبح خسارة الاتحاد الوطني اكثر جسامه اذا تجاوزت العملية التركية ضرب الـ ب. ك. ك. لخلق وضع جيوسياسي جديد ودائم تحت الوصاية التركية. ولكن القراءة الاولية لبيانات الاتحاد الوطني الكردستاني تعكس حذرا دون ادانة للعملية العسكرية بانتظار التطورات، وسعي للضغط لانهاء العمليات العسكرية بالسرعة الممكنة بما يقلص خسائره، ومن اجل ذلك يملك الاتحاد الاوراق التالية:

- المطالبة بتنفيذ اتفاق انقرة للسلام في كردستان الذي نصت الفقرة 20 منه: "ستنظم انتخابات جديدة في وقت مناسب، وسيقدم المشاركون في هذا الاجتماع المساعدة في تهيئة الارضية لانتخابات حرة عادلة".
- الحرص على منع مظاهر الوجود العسكري لحزب العمال، كما تمثل في تطويق مقرات حزب العمال في السليمانية وقطع الماء والكهرباء عن مقراتهء كما منعت عناصره من تنظيم اعتصام احتجاجي امام مقر الامم المتحدة في المدينة، في وقت استقبلت السليمانية مقر الطالباني وفدا تركيا "سياسي-عسكري".
- التلويح باعادة النظر في تحالفاته العراقية والاقليمية والدولية وذلك على ضوء تطورات الموقف على الارض، خاصة اذا اصبح الاصطدام مع تركيا حقيقة قائمة، عندها للاتحاد مصلحة في الانضمام للتحالف السوري الايراني اولا، ليتسع فيما بعد لضم بغداد عند الضرورة.

اللاعب العراقي:

الامر يعتمد على قراءة بغداد للهجوم التركي وماهي ابعاده، فان اعتبرته مجرد تكرار لاجتياحات سابقة فان بغداد قد لاتجد خطرا عليها منه، بل قد يفيدها باظهار ان الحل الحقيقي للازمة الكردية هو بيد بغداد وليس انقرة. ولكن ردود فعل بغداد على العمليات العسكرية التركية تجاوزت اللغة التقليدية لبغداد حيث اعتبرت تركيا قد تجاوزت "الخط الاحمر"، كما طالبت (بابل 24/5/97) للمرة الاولى بعقد قمة عربية لانهاء "الغزو" التركي، وفتحت بغداد ابوابها بترحاب كبير للوفد التجاري السوري الامر الذي قد يوحي بخوف عراقي من ان تكون هذه العمليات سابقة جديدة لفرض واقع جيوسياسي جديد بما يهدد وجود النظام اصلا. ومع ذلك لم تحسم بغداد موقفها من العمليات العسكرية التركية حيث ابقت الابواب مفتوحة للاحتمالين- بقاء تركي مؤقت او دائم-، فحتى زيارة الوفد التجاري السوري عادلتها بغداد باستقبال عدي صدام حسين لوفد من جماعة الاخوان المسلمين المحظورة في سورية برأسة "المراقب العام" علي صدر الدين البيانوني، وتبقى الدعوة لعقد قمة عربية او اجتماع عربي على مستوى وزراء الخارجية ورقة للاحراج اكثر منها للعلاج.

وفي كلا الحالتين - احتلال تركي مؤقت ام شبه دائم- ليس امام بغداد التي تعيش حالة عزلة وحصار سوي خيار الضغط السياسي، بما في ذلك التلويح ولكن دون التنفيذ، بتحالف مع سوريا او حتى ايران. اما على صعيد المعارضة العراقية فان الاجتياح زاد من تهميش دورها وذلك بتعميق الهوة بين المعارضة والحزب الديمقراطي

الكردستاني والاطراف التركمانية التي رفضت ادانة العمليات التركية. وحالة التهميش هذه تعكسها بيانات تنظيمات المعارضة المختلفة التي علقت تناقضاتها على شماعة "صدام حسين"، وذهب البعض منها الى تحميله مسؤولية الاجتياح ان لم تعتبره - متواطئاً، والبعض الاخر قفز راكضا وراء سراب "تحالف" يضم العراق وسوريا وايران. سبق لكردستان ان استنزفت انظمة عراقية مختلفة، ولكنها اليوم استنزفت اضافة الى النظام، المعارضة العراقية.

ورقة تركيا الرابحة

اذا كانت بغداد غير مهيئة لمواجهة عسكرية مع تركيا لاسباب عديدة، منها حاجتها لتركيا كرئة اقتصادية اساسية، فان الخوف من تورط عسكري يستنزف الاقتصاد التركي، يجعل الاخيرة اميل للخروج من شمال العراق بما يحفظ ماء وجه بغداد حليفتها الاقتصادية، والحفاظ على شعرة معاوية في علاقتها مع الطالباني بأمل ابعاده عن ايران.

وبتحول شمال العراق الى كانتونات - بارزانية، طالبانية، تركمانية- تحقق تركيا الكثير من مصالحها دون الحاجة للاحتفاظ بوجود عسكري دائم ومكلف، وذلك بالاستعانة والاعتماد على البرزاني والتركمان للعلب دور الجندرمة في حفظ الامن التركي.

كما ان تكرار عمليات الاجتياح التركي لشمال العراق اصبح سابقة "مقبولة" وان لم تكن شرعية، وبهذه اصبحت "العصا" التركية سيفا مسلطا على اكراد العراق بما يجعل من مساعدتهم لحزب العمال مغامرة مكلفة.

ان انسحابا تركيا مدروسا يجعل من تركيا اللاعب الاول في كردستان العراق، ويعطيها استحقاقات على عراق اليوم وعراق مابعد العزلة والحصار، يسدد ثمنها الاكراد والعرب معاً.

(الملف العراقي، العدد 66 - حزيران 1997)

❊ ❊ ❊